خطبة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حجة الوداع

شعر الرسول (صلى الله عليه وآله) بأن حياته قد انطوت ، وأيامه قد انتهت ، لأنه أدَّى ما عليه ، وأقام دينه العظيم يؤدي فعالياته في توجيه الإنسان وإقامة سلوكه .

فإذن لابد له (صلى الله عليه وآله) من الرحيل عن هذه الحياة ، فقد كانت هناك إنذارات متوالية تدل على ذلك ، وهي كما يلي :

أولها :

أن القرآن الكريم نزل على الرسول (صلى الله عليه وآله) مَرَّتين ، فاستشعر (صلى الله عليه وآله) بذلك حضور الأجل المحتوم ، وأخذ ينعى نفسه ، ويذيع بين المسلمين مفارقته لهذه الحياة .

وكان يقول لبضعته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليها السلام) : (إِنَّ جِبرائيلَ كَانَ يُعارضُني بالقُرآنِ في كُلِّ سَنَة مَرَّة ، وإِنَّه عارضني به العام مرتين ، وَما أرَى ذَلك إِلاَّ اقتِرَاب أَجَلي) .

ثانيها :

إنّه نزل عليه الوحي بهذه الآية الكريمة : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ) الزمر : ٣٠ .

وكانت هذه الآية إنذاراً له (صلى الله عليه وآله) بمفارقة الحياة ، فأثارت كَوامِنَ التَوَجُّسِ في نفسه (صلى الله عليه وآله) .

ثالثها :

إنّه نزلت عليه سورة النصر ، فكان (صلى الله عليه وآله) يَسكُتُ بين التكبير والقراءة ويقول : (سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ ، أَستَغفِرُ اللهَ وَأتُوبُ إِلَيه) .

فَفَزِع المسلمون وذهلوا ، وانطلقوا إليه يسألونه عن سبب ذلك ، فأجابهم (صلى الله عليه وآله) : (إِنَّ نَفسِي قَد نُعِيَتْ إِلَيَّ) ، وكان وَقْعُ ذلك عليهم كالصاعقة ، فلا يعلمون ماذا سيجري عليهم إن خلت هذه الدنيا من النبي (صلى الله عليه وآله) .

حِجَّة الوَداع :

فلما أَحسَّ النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بِدُنُوِّ الأجل المحتوم منه ، رأى أن يَحِجَّ إلى بيت الله الحرام ليلتقي بعامة المسلمين ، ويعقد هناك مجلساً عاماً يضع فيه الخطوط السليمة لِنَجَاة أُمَّتِه ، ووقايتها من الزيغِ والانحراف .

فحج (صلى الله عليه وآله) حِجَّتَه الأخيرة الشهيرة بـ (حِجَّة الوَداع) في السنة العاشرة من الهجرة ، وسميت تلك الحجة بـ (حجة الوداع) ، لأن الرسول (صلى الله عليه وآله) ، انتقل إلى الرفيق الأعلى ، بعد حوالي ثلاثة أشهر من خطبته .

فأشاع فيها بين الوافدين لبيت الله الحرام أن التقاءه (صلى الله عليه وآله) بهم في عَامِهم هذا هو آخر عَهدِهم به ، فقال (صلى الله عليه وآله) : (إِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّيْ لا أَلقَاكُم بَعدَ عَامِي هَذا بِهَذا المَوقِفِ أبَداً) .

وجعل يطوف على الجماهير ، وَيُعَرِّفُهم بما يَضمِنُ لهم نَجَاحَهُم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، فقال (صلى الله عليه وآله) : (يَا أَيُّهَا النَّاس ، إِنِّي تَرَكتُ فيكُم الثَّقَلين ، كِتابَ اللهِ وَعِترَتِي أهلَ بَيتي) .

فكانت الركيزَةُ الأولى لِسَلامة الأُمَّة وصِيانَتِها عن أي زَيغٍ عقائدي هو تَمسُّكُها بكتاب الله تعالى ، والتمسُّكُ بالعترة الطاهرة ، فَهُما أساسُ سعادتِهَا وَنجاحِهَا .

ولما انتهى (صلى الله عليه وآله) من مراسيم الحج ، وقف عند بئر زَمْزَم ، وأمر ربيعة بن أمية بن خلف – وكان صبيّاً – فوقف تحت صَدرِ رَاحِلَته ، فقال (صلى الله عليه وآله) : (يا ربيعة ، قُل : يَا أَيُّهَا النَّاس ، إنَّ رَسولَ اللهِ يَقول لَكُم : لَعَلَّكُم لا تَلقونَنِي عَلى مِثلِ حَالي هَذه ، وَعَليكم هَذا ، هَل تَدرُونَ أَيَّ بَلَدٍ هَذا ؟ وهَل تَدرُونَ أيَّ شَهرٍ هَذا ؟ وهَل تَدرُونَ أَيَّ يَومٍ هَذا ؟) .

فقال ربيعة مثل ما أمره النبي (صلى الله عليه وآله) .

فقال الناس : نعم هذا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، واليوم الحرام .

وبعدما أقرُّوا بذلك قال (صلى الله عليه وآله) : (إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَليكُم دِمَاءَكُم وَأَموَالَكُم كَحُرمَةِ بَلَدِكُم هَذا ، وَكَحُرمَةِ شَهرِكُم هذا ، وَكَحُرمَةِ يَومِكُم هَذا) .

ثم قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

قالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (وَاتَّقُوا اللهَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشيَاءَهُم ، وَلا تَعثَوا في الأَرضِ مُفسِدِين ، فَمَنْ كَانَت عِندَهُ أمانَةً فَلْيُؤَدِّهَا) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (النَّاسُ في الإسْلاَمِ سَواءٌ ، النَّاسُ طَف الصَّاعِ لآدمَ وَحَوَّاءَ ، لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ على عَجمِي ، ولا عَجمِي عَلى عَرَبِي إلاَّ بِتَقوَى اللهِ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (لاَ تَأتُونِي بِأَنْسَابِكُم ، وَأْتونِي بِأَعمَالِكُم) .

ثم قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (كُلُّ دَمٍ كَانَ في الجاهِلِيَّة مَوضوعٌ تَحتَ قَدَمي ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمَ آدمَ بنَ ربيعة بنَ الحَارِثَ بنَ عبد المُطَّلب) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (وَكُلُّ رِبا كانَ في الجاهلِيَّة مَوضوعٌ تَحتَ قَدمي ، وَأوَّلُ رِبا أَضعُهُ رِبا العبَّاس بنَ عَبد المُطَّلِب) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَيُّهَا النَّاس ، إِنَّمَا النَّسيءُ زِيادةٌ في الكُفرِ ، يضلُّ به الذينَ كَفَروا ، يُحِلُّونَهُ عاماً ، وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً ، لِيوَاطِئُوا عِدَّة مَا حَرَّمَ اللهُ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أُوصِيكُم بالنِّساءِ خَيراً ، فَإِنَّما هُنَّ عَوَارٍ عِندَكُم ، لا يَملُكْنَ لأَنفُسِهِنَّ شَيئاً ، وإِنَّما أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمانَةِ الله ، وَاستَحلَلْتُم فُروجَهُنَّ بِكتَابِ الله ، وَلَكُم عَلَيهِنَّ حَقٌّ ، وَلَهُنَّ عَليكُم حَقٌّ ، كسْوَتَهُنَّ ، وَرِزقَهُنَّ بالمعروف ، وَلَكُم عَلَيهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فِراشَكُم أَحَداً ، ولا يأذَنُ في بيوتِكُم إلاَّ بِعلمِكُم وإِذنِكُم ، فَإِنْ فَعَلْنَ شيئاً من ذلك فَاهْجرُوهُنَّ في المَضَاجِع ، واضرِبُوهُنَّ ضَرباً غَير مُبرِحٍ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (فَأوصِيكُم بِمَن مَلَكتْ أَيْمَانِكُم ، فَأَطعِمُوهُمْ مِمَّا تَأكُلُون ، وَأَلبِسُوهُم مِمَّا تَلبِسُون ، وإِنْ أَذْنَبوا فَكَالُوا عُقوبَاتِهِم إِلى شِرَارِكُم) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (إنَّ المُسلمَ أخو المُسلم ، لا يَغُشُّهُ ، ولا يَخُونُه ، ولا يَغْتَابُه ، ولا يَحُلُّ لَهُ دَمُهُ ، ولا شَيءٌ من مَالِهِ إلاَّ بِطِيبِ نَفسِه) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ويستمر النبي (صلى الله عليه وآله) في خِطَابِه الحافل ، بما تَضَمَّنَتْهُ الرسالة الإسلامية من البنود المشرقة في عالم التشريع .

ثمّ ختمه – أي : الخِطَاب – بقوله (صلى الله عليه وآله) : (لاَ تَرجعُوا بَعدي كُفَّاراً مُضَلِّلينَ ، يَملِكُ بَعضَكُم رِقابَ بَعضٍ ، إنِّي خَلَّفتُ فِيكم مَا أَنْ تَمَسَّكْتُمْ بِه لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَعِترَتِي أَهْلَ بَيتِي) .

ثمّ قال (صلى الله عليه وآله) : (أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟) .

فقالوا : نعم .

فقال (صلى الله عليه وآله) : (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

ثمّ التفت (صلى الله عليه وآله) إليهم ، فطالبهم بالالتزام بما أعلنه وأذاعه فيهم قائلاً : (إنَّكُم مَسْؤُولُون ، فَلْيُبَلِّغ الشَّاهِدُ مِنكُم الغَائِبَ) .

وبذلك انتهى خِطَابه (صلى الله عليه وآله) .

وهذا الخطاب الرائع حَفلَ بما تحتاجه الأمة في الصعيد الإجتماعي والسياسي ، كما عَيَّنَ لها القادة من أهلِ بيته (عليهم السلام) ، الذين يُعنَوْنَ بالإصلاح العام ، وَبِبِلُوغِ أهداف الأمة في مجالاتها الإقتصادية والإجتماعية .